مجلة تداوليات ISSN :2992-0795
المجلد: الثالث03/ العدد:الأول 01 / جويلية 2025 / ص ص: 20- 50

في الأساس المعرفي للتداوليات الغربية قبل أوستين

The epistemological basis of Western pragmatics before J.L.Austin

مسعود صحراوي

جامعة الأغواط

hammaboutaleb56@gmail.com

ملخص: في هذا المقال نسلّط الضوء على الخلفيات المعرفية التي سبقت ظهور "التداوليات" بصفة رسمية على يد الفيلسوف أوستين (**J. L. Austin**) بعد نشر كتابه **"كيف تُصنع الأشياء بالكلمات"** (How to do things with words)، فأدخل مفهوما محوريا في التداولية هو مفهوم "**الفعل الكلامي**" المتشعب إلى ثلاثة أفعال متزامنة، وأعلن بذلك عن ولادة مفهوم إجرائي يبشر بمنهج لساني جديد لم يكن يقصده أوستين بل كان معنيا بشيء آخر هو تأسيس فلسفة لغوية جديدة تقوم على أبعاد عملية استعمالية يلخصها مفهوم "الفعل" (act).

وقد تميزت تلك المرحلة التاريخية السابقة لأوستين بتأسيس أوّلي غير معلن لقاعدة معرفية عند كثير من الفلاسفة والمفكرين من أشهرهم: **Reid, Gardiner** ثم بيرس **Peirce** وموريس**Morris** ، وفلاسفة التحليل فريجه، وهوسرل، وفيتغنشتاين... فهؤلاء كلهم- ولا سيما الأخير- أقاموا قاعدة انطلق منها أوستين وأسس عليها هذا العلم التواصلي الجديد الذي نسميه: التداوليات (**Pragmatics**).

الكلمات المفتاحية: التداولية، الفعل، فلسفة التحليل، الظاهراتية اللغوية، فلسفة اللغة العادية، الوضعانية المنطقية.

Abstract: **In this work, we shed light on the cognitive backgrounds that preceded the official emergence of "pragmatics" at the hands of the philosopher J. L. Austin after publishing his book "How Things Are Made with Words." He introduced a pivotal concept in pragmatics, which is the concept of the "speech act" branched into three simultaneous acts. Thus, he announced the birth of a procedural concept that heralds a new linguistic approach. This was not what Austin intended. Rather, he was concerned with something else, which is establishing a new linguistic philosophy based on practical dimensions. Usage is summarized by the concept of "act".**

Key words: **Pragmatics, act, analytical philosophy, linguistic phenomenology, ordinary language philosophy, logical positivism.**

مقدمة:

إنه من العسير أن يجزم المرء بتاريخ دقيق للمقدمات الأولى التي تعتبر إرهاصًا لـ"التداولية" في الفكر الغربي الحديث، وأن يرسم خطوط مساراتها الدقيقة لحظة انبثاقها الأولى، في خضمّ لحظة تاريخية مثقلة بالأفكار والنظريات والتصورات التي أحدث ثورة في مسار العلوم أثمرت قطيعة معرفية في مسار العلوم الإنسانية خصوصا، والعلوم الأوروبية عموما. ولكن حسبنا أن نشير إشارات تقريبية قريبة من الواقع التاريخي، يغلب على ظننا أنها هي إرهاصاتها ومقدماتها عند الفلاسفة خلال القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين زمنَ تحولات الحداثة الغربية.

وللحديث عن نشأة التداولية في الفكر الغربي المعاصر لا بد من التمييز بين مرحلتين كبيرتين تطبعان مسارها وهما: مرحلة الإرهاصات الأولى على أيدي الفلاسفة الإنجليز والألمان والأمريكان، ومرحلة الولادة الفعلية الرسمية التي دشنها، في اعتقادنا، الفيلسوف أوستين باكتشاف مفهوم "الفعل الكلامي" الذي سرعان ما تحول من مفهوم "للفعل اللغوي"، كما يعبّر بعض الدارسين، إلى "نظرية" واضحة ومتكاملة ومتماسكة للأفعال الكلامية.

الإرهاصات الأولى:

قبل أوستين عُولج "التصور التداولي" ضمن سياق فكري جذوره التاريخية ذات تأثير فلسفي ومعرفي قوي وعميق، ولكنها غير مباشرة، انتظمتها ثلاثة تقاليد معرفية[1]:

- التراث الإنجليزي في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر

[1] - يُنظر(المقال الأصلي باللغة الفرنسية): Nerlich Brigitte, Clarke David D. La pragmatique avant Austin: fait ou fantasme ?. In:Histoire Épistémologie Langage, tome20, fascicule 2, 1998. Théories des cas. pp. 107-125 ولتراجع نسخته العربية: بريجيت نرليتش ودافيد كلارك، في: تساؤلات التداولية وتحليل الخطاب، ترجمة:حافظ إسماعيلي علوي وآخرين، دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع، عمان، 2016، ص9.

- التراث الأمريكي،
- التراث الجرماني،

الأول يمثله بطريقة غير مباشرة بعض الفلاسفة وعلماء النفس البريطانيين -مثل: الاسكتلندي "توماس ريد" (**Reid**) (**1710-1796**) مؤسس فلسفة "الإدراك الفطري للإنسان"- في نقده لتصور أرسطو والفلاسفة من بعده، التصور القاضي بأن الجمل القابلة للتحليل الفلسفي هي الجمل الخبرية الوصفية فقط، فذهب "توماس ريد" إلى أن الجمل غير الوصفية، الحاملة لقوة كلامية كالوعد والتنبيه والاعتذار، أيضا يمكن دراستها فلسفيا[1]. ويبدو أن أفكاره تلك أثرت في معاصريه دون أن تنشأ عن ذلك متابعة قريبة مباشرة لسانية أو فلسفية، مثلما حدث في النصف الثاني من القرن العشرين... ولعل آراءه تلك قد اطلع عليها من جاء بعده من الفلاسفة الإنجليز في القرن العشرين مثل راسل **Betrand Russel** ومور **Moore**، وربما "فيتغنشتاين"**L. Wittgenstein** أيضا.

ويمكن الحديث هنا أيضا عن "ألان جاردينر" **Alain Gardiner** (**1879-1963**) الذي كان عالم لغويات وآثار مصرية... وقد ألف من الأبحاث اللغوية ما يدل على أنه كان على وعي بالفروق بين الجملة والخطاب، وأن الخطاب فعلٌ فردي ذو بعد اجتماعي، وميّز بين اللغة وفعل الكلام. ولكن ذلك لم يُترجم في إنجاز فلسفة دلالية حقيقية كما حدث بعد ذلك مع أوستين، لأن معظم الفلاسفة الكبار لم تكن لديهم "نظرية" عن أفعال الكلام، كما قال الفيلسوف سيرل، إلا نظرات قليلة معزولة وإشارات سريعة إلى بعض الدلالات والأغراض التواصلية لجمل تحمل قوى معيّنة: كالتنبيه والاعتذار.

وقد أشارت بعض الدراسات إلى أن بعض الأفكار ذات البعد التداولي قد بدأ تداولها عند نحاة القرن التاسع عشر من مثل برناردي **Bernhardi** وهومبلت **Humboldt** وتيبو **Thiebault** الذين تحدثوا عن اللغة

[1] - نفس المرجع، ص 18.

عموما والنحو خصوصا بوصفهما ذَوَيْ بُعدين: بُعد اجتماعي وبُعد عملي، ثم فيغنر **Philipp Vegener** وبولهان **Paulhan**... ووصفوا اللغة بأنها أداة للفعل والتأثير في المخاطَب فوق كونها أداة للتواصل. وتُعدّ هذه الأفكار –في نظر بعض الدارسين- تأسيسا غير مباشر للتداولية ولمفهوم "الفعل الكلامي"[1] على التحديد.

ولا يُعلم إن كانت هذه الأفكار أثرت تأثيرا مباشر أو غير مباشر في فلسفات الفلاسفة الألمان ثم الأنجليز والأمريكان الذين ظهرت مؤلفاتهم وعُرفت أفكارهم منذ بداية القرن العشرين، والذين سنتعرض لفلسفتهم إجمالا في إطار ما أطلق عليه "الفلسفة التحليلية".

ولا ينبغي أن نغفل عن أن إرهاصات التّداوليّة قد بدأت تبرز كذلك في أمريكا في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين مع فيلسوفين أمريكيين. ظهرت أولا مع ظهور مقالة بيرس: "كيف نجعل أفكارنا واضحة "عام **1878**م، وتساءل بيرس متى يكون للفكرة معنى؟ ومن أهم ما كان يُعنى به دراسة الدليل، وعلّل إدراكه بواسطة التفاعل الذي يحدث بين الذوات والعوالم السيميائية، وحاول تطوير التجربة الإنسانية من خلال الأدلة، وقد مرّت تجربته بثلاث مراحل[2]:

- الأولى تمثلت في بحثه "كيف نجعل أفكارنا واضحة" الذي خالف فيه آراء "باركلي"، وبيّن في هذه المرحلة أنّ أي حدّ أو لفظ مجرد لا معنى له إذا لم يكن بمقدورنا استعماله.
- أمّا الثانية فربط فيها بيرس بين البراجماتية والفينومينولوجيا، وذكر أنّ المعيار الحقيقي للمعنى يجب ألّا يشير إلى الفعل وإنّما إلى الغاية القصوى التي تحكم الفعل وتوجّهه، وفيها خلص إلى أنّ البرجماتيّة ترتبط بالاستدلال الفرضي، لأنّ الفكرة الجديدة هي التي تحتاج إلى إيضاح وتفسير.

[1] - يُنظر: Nerlich Brigitte, Clarke David D. La pragmatique avant Austin: fait ou fantasme?. In: Histoire Épistémologie Langage, tome20, fascicule 2, 1998. Théories des cas. pp. 107-125

[2] - سيف الدين الفقراء، رؤى تداولية في الصرف العربي، (مخطوط)

- وفي المرحلة الثالثة قدّم نظرية متكاملة عالج فيها مسألة الإشارات[1].

ثم برزت مع الفيلسوف الأمريكي الثاني وهو "شارل وليم موريس"[2]، الدي يُعدّ من الرواد المؤسسين غير المباشرين للتداولية؛ فقد اعتبرها جزءاً من السيمائية عند تمييزه لثلاثة فروع لهذه الأخيرة، وهي: علم التراكيب الذي يمثّل العلاقات بين التعابير اللغويّة، وعلم الدلالة الذي يمثّل دراسة الرموز وعلاقتها بالمعنى، والتّداوليّة التي تُعنى بالعلاقة بين العلامات ومستخدميها، لقد طوّر موريس وظيفة الدليل التي بدأها بيرس، وركّز على السلوكيّة، وتشتمل سيرورة الدليل عند موريس على أربعة عناصر:

1- العنصر الذي يقوم مقام الدليل أو الناقل.
2- العنصر الذي يحال الدليل عليه(المدلول عليه)
3- عنصر الأثر الذي يحصل المؤول عليه
4- المؤِّول.

ميّز موريس ثلاثة علائق عند دراسة العلامات، وهي: علاقة العلامة بالموضوعات، وعلاقة العلامة بالمؤولين، والعلاقة الشكلية بين العلامات نفسها. وممّا سبق يتضح أنّ موريس لا يبتعد كثيراً عن تصور بيرس إلّا من حيث البعد السلوكي، كانت جهود موريس حافزاً لمجموعة من الدراسات، مثل دراسة الظواهر النفسية والاجتماعية الموجودة داخل أنظمة العلامات بشكل عام، وداخل اللغة بشكل خاص ودراسة التصورات[3].

1- نعمان بوقرة، المدارس اللسانيّة المعاصرة، ص 170-175، وسحالية عبد الحكيم، التداوليّة: النشأة والتطور، http://boumansouraeducation.ahlamountada.com/t221-topic.

2- عزيزة فوال بابتي، موسوعة الأعلام العرب والمسلمين والعالميين)، دار الكتب العلميّة، ج4، 246.

3- نعمان بوقرة، المدارس اللسانيّة المعاصرة، ص 179-182, وسحالية عبد الحكيم، التداوليّة: النشأة والتطور. http://boumansouraeducation.ahlamountada.com/t221-topic.

غير أن باحثة مثل "بريجيت نيرليتش"[1] ، كما ذكرنا، تعتقد أن هناك تداولية قد ظهرت في أوروبا قبل التداولية المعروفة، وذهبت إلى أن بعض الباحثين أنجزوا تداولية قبل أوستين، وهي عبارة عن تفكير لغوي عملي في علاقة الحدث اللغوي بالمقام، والغرض الذي يريد المتكلم تحقيقه في سياق تفاعلي معين[2]. وقد عزت هذه الباحثة أصول التداولية إلى الفلاسفة البريطانيين خلال القرنين: الثامن عشر والتاسع عشر وأوردت في معرض الدفاع عن هذه الأطروحة بعض النصوص لأعلام الفلاسفة وعلماء النفس واللغويين إبان تلك المرحلة.

لكن كثيرا من الفلاسفة واللسانيين يذهبون إلى أن المفاهيم "التداولية" الحقة بطابعها العلمي الصريح، وخصوصا "نظرية الأفعال الكلامية" وما يحاقلها من مفاهيم في مبدأ "الإنجاز" ثم مبدأ "التخاطب" لم تؤسس إلا في النصف الثاني من القرن العشرين[3]، على يد فلاسفة التحليل من أمثال: أوستين وسيرل وغرايس. ويبدو أن هذا الرأي الثاني هو الأقرب إلى القبول والتسليم.

الفلسفة التحليلية: اكتشفت، إذن، ظاهرة "الأفعال الكلامية" في سياق معرفي عام ميزته الأساسية أنه ولى ظهره للفلسفة القديمة، الميتافيزيقية خصوصا، وانفتح على اللغات الطبيعية، فحول بؤرة الاهتمام الفلسفي من الموضوع الذي شغل الفلاسفة لقرون عديدة، وهو موضوع "المعرفة"، إلى موضوع "تحليل اللغات الطبيعية"[4]، ولا سيما ما تعلق منها بالدلالة والمرجع على مستوى العبارات اللغوية، وكيفية أدائها لوظائفها المتعددة ومنها وظيفة التواصل، ووظيفة التفاعل بين المتخاطبين. هذا المناخ الفلسفي العام هو تيار "الفلسفة

ولْيُراجع: سيف الدين الفقراء، رؤية تداولية للصرف العربي.

[1] - باحثة في اللسانيات والأنتروبولوجيا والأتنولوجيا بجامعة تونتغهام البريطانية.

[2] - ليراجع: المرجع السابق، D. Clarck التداولية قبل أوستين: حقيقة أم خيال، في: https://www.persee.fr/doc/hel_0750-8069_1998_num_20_2_2717

وليقارن بـ: بريجيت نرليتش ودافيد كلارك، في: تساؤلات التداولية وتحليل الخطاب، 2016.

[3] - منهم فرانسوا ريكاناتي، يُنظر: F. Recanati, postface de Quand dire c'est faire, éd. Seuil. Paris.1970

ومنهم: Sylvain AUROUX- Ou nait la pragmatique? in : Histoire Épistémologie Langage 20/1 (1998).

ومنهم جاك موشلر Moeschler وآن روبول Anne Reboul وغيرهم.

[4] - Jean LADRIERE - Philosophie et langage - dans : Philosophie et Langage- Université libre de -Bruxelles- 1982- pp 21/28

التحليلية" بما احتوته من مناهج وتيارات وقضايا ، ولذلك بات ضروريا التعريف بهذا التيار الفلسفي وبمختلف اتجاهاته وأعلامه وقضاياه، لأنه يجسد الخلفية المعرفية المباشرة والمحضن الفكري القريب لنشوء الظاهرة اللغوية موضوع الدراسة. فالفلسفة التحليلية لا تعنينا إلا بقدْر ما تمخض عنها من فكر كان سببا لميلاد هذا المنهج، فما يهمنا منها إذن هو لحظة انبثاق ظاهرة الأفعال الكلامية من قلب التحليل الفلسفي ثم ما ترتّب على ذلك من ولادة التيار التداولي في البحث اللغوي، لأن فلسفة اللغة العادية هي السبب الأبرز في نشوء اللسانيات التداولية.[1]

ظهور الفلسفة التحليلية: استخدم "التحليل" شعارا ومنهجا للبحث الفلسفي من قبل الفلاسفة الإنجليز منذ أواسط القرن العشرين على نحو جعل "الفلسفة التحليلية" عَلَما للفلسفة الألمانية ثم للفلسفتين الإنجليزية والأمريكية المعاصرتين. ولكن "الفلسفة التحليلية" - بمفهومها العلمي الصارم والذي هو المقصود من إطلاقنا في هذا البحث- نشأت في العقد الثاني من القرن العشرين في ألمانيا والنمسا، على أرجح الآراء[2]، على يد الفيلسوف النمساوي غوتلوب فريجه **Gottlob Frege (1848-1925)** بكتابه أسس علم الحساب [3].. وكانت دروسه في الجامعة الألمانية موردا لطلاب الفلسفة والمنطق من مختلف الأصقاع الأوروبية لا سيما ألمانيا والنمسا على الرغم من قلة إنتاجه المكتوب.

وبما أن "التحليل" هو الإجراء الأساسي الذي تتميز به الفلسفة التحليلية، فإننا نفضل الوقوف عند هذا الإجراء وتحديد مفهومه كما يتصوره فريجه والفلاسفة المنضوون تحت منهجه، لا سيما وأن فريجه أثناء

[1]- François RECANATI , Naissance de le pragmatique, in: Quand dire c'est faire, (postface), p 185.

[2]- يذهب دار سون آخرون إلى أن الفلسفة التحليلية لم تنشأ إلا مع فلاسفة المدرسة الإنجليزية الحديثة، من أمثال : جورج مور، برتراند رسل، فيتغنشتاين، وكارناب،.. في أواسط القرن العشرين، ولكن التحليل" كإجراء علمي قال به الفلاسفة منذ عصر أفلاطون.
يُنظر: محمود زيدان، مناهج البحث الفلسفي- ص 75.

[3]- Les fondements de l arithmetique وقد قال بذلك كثير من الدارسين المختصين، منهم على الخصوص:M. Dummet , S. Chauvier

مزاولته لهذا الإجراء قد اقترح تحليلا معمقا لعدة ظواهر لغوية. كما كان لفلاسفة تحليليين آخرين تصوراتهم لـ"التحليل" تستحق أن نقف عندها.

من أهم التحليلات اللغوية التي أجراها فريجه على العبارات اللغوية وعلى القضايا، تمييزه بين مقولتين لغويتين تتباينان مفهوميا ووظيفيا، وهما : اسم العلم والاسم المحمول، وهما عماد القضية الحملية. ولا شك في أن هذا التمييز من اكتشافات المنطق الحديث، لأن القدامى كانوا يخلطون بين القضية الحملية وغير الحملية[1]، ولم يتم التمييز بينهما إلا بعد صياغة المنطق الحديث.

بيّن فريجه أن "الاسم المحمول" يقوم بوظيفة التصور، أي يقوم بإسناد مجموعة من الخصائص الوصفية الوظيفية إلى اسم العلم، أما "اسم العلم" فإنه يشير إلى شيء فرد معين وهو عاجز تماما عن استخدامه كمحمول، بل إن الاسم المحمول يتميز عن اسم العلم بميزتين على الأقل[2]:

- أن الوظيفة الأساسية لاسم العلم هي إشارته إلى شيء فردي معين، بينما الوظيفة الأساسية للمحمول هي دلالته على تصور، أي على مجموع الخصائص التي سند إلى اسم العلم أو بعضها. فالعلم يؤدي معنى تاما مستقلا دون حاجة إلى لفظ آخر ليتم معناه، والمحمول يحتاج إلى اسم العلم ليعطيه معنى.
- أن ألفاظ التسوير* (كل، بعض...) ليس لها معنى حقيقي إذا دخلت على علم، بل قد تفسد معناه، وإذا دخلت على محمول أفادت معنى جديدا. ذلك أن العلم لا تجري عليه أسوار الكلية أو التبعيض. في الحديث عن محمد مثلا، لا نقول : كل محمد، أو بعض محمد (على الحقيقة)، فالعلم

[1]- ينظر : محمود زيدان في فلسفة اللغة - دار النهضة العربية- بيروت 1985- ص12.

[2]- G. Frege- Les Fondements de l'arithmétique -trad. franç. De : C. Imbert-Paris-Le Seuil- p 181.

*- الأسوار، أو ألفاظ التسوير (Quantitatificateurs) : هي المحددات التي تشير إلى عدد الاسم (كل، بعض...)

يُنظر: J . Dubois et autres - dictionnaire de linguistique - Larousse - Paris - 1973 - p402

لا يقبل التبعيض. أما المحمول فيظل ذا معنى ولو دخلت عليها الأسوار، فنقول مثلا : كل متعلم، كل موظف، بعض الناس ...

وفي دراسته لقضايا المنطق كان فريجه يحلل العدد تحليلا دلاليا ليؤسس عليه نتائج أنطولوجية، باعتبار الأعداد "أشياء" حاملة لمفاهيم أو قيم ، ولا ريب في أن أي تواصل لغوي لا يتحقق بين الناس إلا بالمعاني والدلالات المحمولة في الألفاظ، والتي قد تصل إلى درجة المفاهيم، إذ هي جوهر اللغة العادية والعلمية. فراح فريجه يتساءل عن هوية "الأعداد"، هل العدد كائن حقيقي أم هو اختراع وجوده وهمي؟ وإذا كان كائنا حقيقيا فمن أي صنف من الكائنات هو؟ ... وبغرض الإجابة عن هذا السؤال المتعلق بطبيعة العدد) يسلك طريقا غير مباشر، أي يتبع منهجا ذا إجرائية وسيطة، فهو لا يعمد إلى العدد ذاته، وإنما يقوم بتحليل قضية مشتملة على عدد ثم يتوصل من تحليلها إلى تعريف العدد والحكم عليه، فهو يقوم، إذن، بتحديده وكشف هويته من وسطه المنطقي.

وبعد إعادة بنائه لتحليلات الفيلسوف فريجه يقرر شوفييه **Chauvier** أن هذه التحليلات تتميز بثلاثة مميزات تتحكم بمجمل فلسفته التحليلية:

- أن فريجه لا يحلل المفاهيم ذاتها، ولكن يحلل القضايا المشتملة على مفاهيم ذات كفاءة وملاءمة/ أي مفاهيم ملائمة (**Concepts pertinents**).
- أنه عُني بشروط صدقية القضايا (**Conditions de vérité des propositions**)
- أنه يستخدم التحليل الدلالي ليستنتج منه نتائج أنطولوجية[1].

[1] S. Chauvier-Origines de la philosophie analytique- Gallimard - Paris - 1991-p 19

باختصار ، هذا هو الأسلوب الذي يتصوره فريجه مستوفيا للكفاءة المنهجية لتحليل الجمل ذات القضايا المنطقية ليستنتج منها خلاصات أنطولوجية.

وأما القيمة الفلسفية لما جاء به هذا الفيلسوف - من وجهة فلاسفة اللغة والتداوليين المعاصرين - فهي ثمينة، بل لقد كان ما طرحه يمثل عندهم ثورة أو انقلابا فلسفيا جديدا. ومما نجده في هذا الاتجاه ما صرح به الفيلسوف ج. سيرل **Searle .J** في حوار أدلى به "إن التيار الذي أنتمي إليه (أي فلسفة التحليل) هو، في جزء كبير منه، مجموعة انفعالات إيجابية على كتاب فريجه **Frege** "أسس علم الحساب". إننا عرفنا خطورة ما أوحاه من تعاليم علمية وفلسفية إلى: رسل، وفيتغنشتاين، وأوستين الذي كان أستاذي في أوكسفورد. إذن بهذا المعنى أنا أندرج ضمن الثورة التي قادها فريجه.[1]

هذه الثورة كانت تعني للفلاسفة، للوهلة الأولى، إعادة اكتشاف للمنطق عبر خلق طريقة جديدة لحساب المحمولات، فأعادت صياغة تصورات الناس عن المنطق. ولكن فريجه حقق أكثر من ذلك إذ يصفه سيرل بأنه "قد غير تماما كل تصوراتنا للغة، إن فلسفة اللغة العادية، التي هي من مبتكرات فريجه، هي مركز الفلسفة في القرن العشرين[2].

فالجديد الذي جاء به هذا الفيلسوف هو نظرية دلالية خصوصا تميزه - في متن العبارة اللغوية - بين اسم العلم والاسم المحمول، كما رأينا، وبين المعني والمرجع، محدثا قطيعة معرفية بين الفلسفتين القديمة والحديثة، كما ربط بين مفهومين تداوليين هامين، هما الإحالة والاقتضاء، وسيأتي الحديث عنهما، ولا شك في أن ذلك من نتائج اعتماد "التحليل" منهجا فلسفيا جديدا.

أما جورج مور (**G. Moore**)(**1873 - 1958**) فالتحليل عنده يعني: تحليل دلالات الألفاظ والعبارات اللغوية، ثم تحليل القضايا والتصورات، لكنه أثناء تحليله لدلالات الألفاظ كان يقوم بعمل فلسفي لا لغوي،

[1] - John Searle-Entretien- st-socrates.berkeley.edu/~jsearle/rtf/ledebat. -

[2] - ibid.

بعبارة أخرى كان بحثه اللغوي وسيلة لفهم أدق القضايا الفلسفية. وقد تأثر بـ"مور" مجموعة من الفلاسفة الإنجليز الذين قاموا بتعميق المنهج الذي ورثوه عنه حتى استوى نسقا معرفيا مستحدثا، أطلق عليه: الفلسفة التحليلية. لكن ج. مور اختلف مع زملائه فلاسفة التحليل. بعد ذلك، لا سيما ل. فيتغنشتاين، فتفرعت الفلسفة التحليلية إلى مذاهب واتجاهات متعددة.

اقتفى الفيلسوف النمساوي لودفيغ فيتغنشتاين **Wittgenstein (1889-1951)**، في كتابه الثاني "أبحاث فلسفية **Investigations philosophiques**" الذي نشر سنة **1959**، وكان قد اقتفى في أول أمره أثر جورج مور و برتراند راسل **B. Russel** ثم استقل بفلسفة خاصة طورها أثناء تدريسه للفلسفة في كامبردج، ونشرها في كتابه الثاني "أبحاث فلسفية"[1]. تخلى في فلسفته الجديدة عن مثاليته المتجسدة في إقامة لغة مثالية، وعن مبادئ الوضعانية المنطقية، وهي فلسفة مغرقة في الصورنة والتجريد، وأسس اتجاها فلسفيا جديدا سماه: فلسفة اللغة العادية، وقوامها الحديث عن طبيعة اللغة وطبيعة المعنى في كلام الإنسان العادي.

أهم ما يميز فلسفته التحليلية بحثه في المعنى، وذهابه إلى أن المعنى ليس ثابتا ولا محددا، ودعوته إلى تفادي البحث في المعنى المنطقي الصارم. فاللغة عنده ليست حسابا منطقا دقيقا بحيث يُخصَّص لكل كلمة معين محدد، ولكل جملة معنى محدد، وإنما تتعدد معاني الكلمة بتعدد استخداماتنا لها في اللغة العادية، وتتعدد معاني الجملة الواحدة حسب السياق الذي تذكر فيه.[2]

وموضوع "التحليل" عند فيتغنشتاين إذن، هو اللغة العادية كما يتكلمها الإنسان العادي وكما يتكلمها الفلاسفة والعلماء في غير أوقات بحثهم. يعتبر فيتغنشتاين **اللغة لعبة قانونها الاستعمال**[3]، وليست كالرجل الحكيم الذي يعرف دائما ما يريد، لذا يجب أن نعرف اللغة من خلال استخدامنا المألوف لها، فإذا فعلنا ذلك وجدنا عدد معاني الكلمات بقدر الحالات والسياقات والظروف المختلفة التي نستخدم فيها اللغة.

---

[1] -:S . Chauvier - Origines de la philosophie analytique - p11

[2] - ibid. -p25.

[3] L.Wettgenstein- Investigations- philosophiques-p 25. - والتأكيد من عندنا

لا يوجد في تحليل فيتغنشتاين معنى نموذجي للكلمة وآخر غير نموذجي، بل المعاني التي تكتسبها الكلمة كلها متساوية وصحيحة، لا معنى أصدق ولا أحق من الآخر.

بذلك يحدد فيتغنشتاين موضوع "التحليل" ويقترح منهجا لدراسة "الدلالات"، فالدلالة يمدنا بها السياق اللغوي ولا تمدنا بها القواميس والمعاجم اللغوية، ودلالة الكلمات بحث متجدد دائما لا ينتهي ما دام الاستعمال اللغوي غير منته.

ومهما اختلف هؤلاء الفلاسفة فإنهم لم يختلفوا على نقطة الإجماع وهي تحديد مفهوم للتحليل "يتناسب مع فحواه لا مع طريقته"، وهو ضرورة الاعتناء بالبحث اللغوي وجعله المدخل الأساسي والأداة المعرفية الضرورية لدراسة موضوعات الفلسفة.

ذلك هو مفهوم "التحليل"، فما "الفلسفة التحليلية" إذن؟

مفهوم الفلسفة التحليلية: يعرف شوفييه **Stéphane Chauvier** الفلسفة التحليلية بأنها "تلك الفلسفة التي ترى أن التحليل الفلسفي للغة كفيل بإيصالنا إلى تفسير فلسفي للفكر، وتفسير الفكر كفيل بإيصالنا إلى الفهم الكلي للكون"[1].

فالفلسفة التحليلية هي ذلك المذهب الفلسفي الحديث الذي اتخذ اللغة موضوعا للدراسة. فقد حددت لنفسها مهمة واضحة منذ تأسيسها، ألا وهي إعادة صياغة الإشكالات والموضوعات الفلسفية على أساس لغوي، فأدارت ظهرها منذئذ للمنهج الذي اتبعته الفلسفة الكلاسيكية (الميتافيزيقية والطبيعية)، ويتمثل ذلك الأساس العلمي في اللغة. ومن هنا راحت تبدئ وتعيد في الإلحاح على أن أولى مهام الفلسفة هي البحث في اللغة وتوضيحها، وقد اعتبر فلاسفة التحليل هذا المبدأ المنهجي هو علامة قوة منهجهم وحقانيته. ولذلك تعتبر الفلسفة التحليلية رد فعل قوي على الفكر الفلسفي القديم برمته، ومن أهم ما أنكرته على ذلك الفكر أنه لم يلتفت إلى اللغات الطبيعية ولم يولها ما تستحق من الدراسة والبحث، فسعت إلى ردم هذه الهوة

[1]- Ibid - p36.

والتكفير عن هذا الذنب باتخاذ اللغة موضوعا للدراسة باعتبارها أولى الأولويات في أي مشروع فلسفي يتوخى فهم الكون ومشكلاته فهما صحيحا.

والهدف البعيد الذي تتوخاه الفلسفة التحليلية هو نفس الهدف الذي تتوخاه الفلسفة التقليدية، وهو محاولة فهم الإنسان ومشكلاته والكون وحركته فهما صحيحا، وموضوعاتها هي نفس موضوعاها، لكن الطريق إلى الهدف المتوخى مختلف، بمعنى المنهج والأدوات.

ومهما يكن من أمر، فإن فلاسفة التحليل رأوا أن الأداة المعرفية الضرورية لتحقيق ذلك الهدف هي اللغة وأنه لا سبيل إلى تجاوزها من أجل فهم علاقاتنا بالعالم وبالكائنات البشرية، إذ **"أن جميع الحالات الموضوعية لشؤوننا، وجميع العلاقات الذاتية مع الأفراد والمجتمع، ومع تاريخ الجنس البشري، قائم على أساس لغوي إن أراد أن يكون له معنى. فالطابع اللغوي مرتبط دائما و أبدا بالفهم، ما دام المعنى الذي تنقله لنا اللغة لا يصير ملموسا إلا على هذا النحو. فالوجود الذي يمكن أن يكون مفهوما أولاً هو اللغة[1]"**

وقد تأثر بالتجديد الفلسفي الذي جاء به فريجه عدد من الفلاسفة، من أمثال: هوسرل **Husserl**، وكارناب **Carnap**، وفيتغنشتاين **Wittgenstein**، وأوستين **Austin**، وج.سيرل **Searle**، وغيرهم. وتجمع بين هؤلاء الفلاسفة مسلمة عامة مشتركة، مفادها أن فهم الإنسان لذاته ولعالمه يرتكز في المقام الأول على اللغة، فهي التي تعبر له عن هذا الفهم. وتلك رؤية مشتركة بين جميع تيارات الفلسفة التحليلية واتجاهاتها كما سيأتي، ذلك أن فلسفة عصرنا، وخلافا للعصور السابقة، يوحد بينها اهتمام مشترك باللغة، إلى حد أن جميع مسائل الفلسفة - حتى تلك المتوارثة عن الماضي - يجري مناقشتها، بصورة واضحة أو غير واضحة، عبر مصطلحات وإجراءات لغوية.

<u>بين موقف فلاسفة التحليل وموقف اللسانيين غير التداوليين:</u>

*- الحيز الوقتي Espace temps هو حيز بأربعة أبعاد (طول، عرض، ارتفاع، زمن) حسب نظرية النسبية" في الفيزياء

[1]- روديجر بوبنير - الفلسفة الألمانية الحديثة - ترجمة: فؤاد كامل – دار الثقافة للنشر والتوزيع-القاهرة - ص81، والتأكيد من عندنا.

يصر فلاسفة اللغة التحليليون على أن ساحتهم الدراسية أرحب من ساحة اللسانيين الوصفيين، ذلك أن اللسانيات -البنيوية خصوصا- ذات حضور موقعي شكلي (صوري) في دراسة اللغة باعتبار هذه الأخيرة نظاما مستقلا من الروابط الداخلية الخالصة باعتراف لويس هيلمسلاف **Hjelmslev** ومدرسته الغلوسيمية[1] وإصرارهم على ذلك، وقد بدأ هيلمسلاف في تطوير نظريته التي لم تنسب إلا إليه، "فهو مبدعها و مؤسسها، وهي نظام من القضايا والقواعد أو المسلّمات الأولية (**Axiomes**) التي تندرج ضمنها مفاهيم دي سوسير الأساسية عبر منهجية استنباطية دقيقة، وساعده في ذلك إلمامه باللغات قديمها وحديثها[2]. تبنّت المدرسة الغلوسيمية (المعروفة بـ"مدرسة كوبنهاجن") مبادئ وتصورات سوسير بقوة وحدّة ودرجة عالية من الشكلانية والتجريد؛ وقد سماها بعضهم "السوسيرية الحديثة"، فرأت أن اللغة "شكلٌ وليست مادة"، وفرّقت بين التعبير والمضمون (الدال والمدلول) مؤكِّدة أن موضوع اللسانيات الحقيقي هو "الشكل وليس المادة"[3].

وبمقتضى هذه الرؤية المتموقعة داخل الكينونة اللغوية بمعناها البنيوي عندهم- بالمفهوم الشكلي المجرد للبنية اللغوية- تم إقصاء عدد من المسائل الأساسية والأبعاد الحيوية من دائرة اهتمامات هذا العلم، أو حضورها حضورا ثانويا، وفي مقدمتها علاقة الكلام بمقتضى الحال أو سياق الحال، وعلاقة اللغة بالواقع الخارجي عن العبارة اللغوية، ومنها المقاصد التي يتوخاها المتكلم في المقامات التخاطبية المختلفة، ومنها أيضا علاقة النشاط اللغوي بالعمليات الذهنية التي تصحب أو تسبق عملية التلفظ، وغير ذلك[4]...

[1]- L. Hjelmslev - Essais linguistiques - Editions de Minuit- Paris- 1971-p 45.

[2] - يُنظر: ميشال زكريا، الألسنية – علم اللغة الحديث – المبادئ و الأعلام"، ص 246.

[3] - يراجع كلّ من:

- ميشال زكريا، الألسنية – علم اللغة الحديث – المبادئ و الأعلام".
- الطيب دبة، الطيب دبة، مبادئ اللسانيات البنوية، دار القصبة للنشر، الجزائر، 2001.

[4]- تبنّت المدرسة الغلوسيمية في كوبنهاجين (بالدانمارك) مبادئ وتصورات سوسير بحدّة جامعةً بين تراث سوسير والمنطق الرياضي، فعدت اللغة نظاما من العلامات، وهي "شكل وليست مادة"، وفرقت بين التعبير والمضمون (الدال والمدلول) مؤكِّدة أن موضوع اللسانيات هو الشكل وليس المادة لأن تشكل المادة يختلف من لغة إلى أخرى... للتوسع يُنظر ما يلي:

وعليه فإن العلم الذي اتخذ اللغة موضوعا له- أعني اللسانيات البنيوية غير الوظيفية (مثل الغلوسيمية)- لم يستوعب كل المسائل المتعلقة باللغة، باعتبار هذه الأخيرة هي الوسيط الأكبر بين الإنسان والعالم، من هنا تخلى عن جزء هام من مهامه بذلك التضييق المفاهيمي الذي اتخذته شعارا اللسانيات غير التداولية وغير الوظيفية عموما، وهي تراهن على أن "موضوع اللسانيات الحقيقي والوحيد هو دراسة اللغة في ذاته ومن أجل ذاته"، وكانت الترجمة العملية لهذه العبارة السويسرية - في كثير من مستويات التنظير وفي الممارسات - أن ساد تصور شكلي لماهية اللغة وللدراسات اللغوية.

تحوّلت اللسانيات الوصفية إذن مع المدارس الصورية المتشددة إلى علم شكلي مغلق ذي إجراءات داخلية خالصة، يؤمن بكيانية العبارة اللغوية في مستواها البنيوي الصوري، ومن هنا راحت تتبع منهجا مميتا لحيوية التواصلي اللغوي، بإقصائها لأحوال التخاطب أو الطبقات المقامية المختلفة التي ينجز ضمنها الخطاب، ولم تسد هذه الثغرة إلا جزئيا في أعمال بعض التوجهات اللسانية الوظيفية، ثم سُدّت كليا، بعد ظهور التداولية والتيارات اللسانية الوظيفية المنبثقة عنها والمتأثرة بها. وكادت بعض تلك المدارس البنيوية تفقد شرعيتها المعرفية وتأثيرها العلمي، وأن تؤول بعض رؤاها إلى الضمور والتلاشي، وأوشكت أن تصبح أثرا بعد عين[1]، إلا إذا استثنينا بعض مفاهيمها الكلية النظرية المؤسّسة، كمفاهيم: البنية، والوظيفة، والنسق، والنظام، والعلاقات... والحق أنه يمكن الأخذ بهذه المفاهيم الإجرائية، والمزاوجة بين التحليل البنيوي والتوليدي-التحويلي من جهة والتحليل التداولي من جهة أخرى حسب معطيات موضوع البحث ووجهته

- يراجع: مصطفى غلفان، نفس المرجع.
- بول ريكور - فلسفة اللغة (مقالة)- في: العرب والفكر العالمي (بحلة) - مركز للإنماء القومي- بيروت- خريف 1989- ص 5.
- بريجيت بارتشت، مناهج علم اللغة...، ترجمة: سعيد حسن بحيري، مؤسسة المختار، 2004.
- أحمد مومن، اللسانيات النشأة والتطور، ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون، 2002.

[1] - ذهبت "بريجيت بارتشت" إلى حد التصريح أن المدرسة الغلوسيمية لم توفَّق في وصف أي لغة من اللغات الطبيعية، بسبب الغلو في الصورنة والتجريد، وغاية ما وصلت إليه أنها عملت على "تطوير" النظرية اللغوية.
يُنظر: المرجع السابق، ص 195.

وأهدافه، وبشرط أن نرى في البنيوية دراسة جزئية لبعض ظواهر اللغة لا كلها، و"تنظيما للظواهر لا كشفا للماهية"[1]. ولعل هذا أن يكون صحيحا ما دام الأساس الإبستيمي للبنيوية يعلمنا أن "نشاط الإنسان ينبجس في عالم متبنين من أساسه"[2] فلا يمكن لأي دارس منصف أن يتجاهل ما أنجزته البنيوية من فكر لساني علمي ولا سيما نجاحها في صياغة النموذج اللساني النسقي القياسي الذي يُؤطّر ضمنه الجمّ الكثير من الألسنة البشرية المختلفة[3].

هذا، وقد بلغ من سطوة اللغة وحضورها في وعي الفلاسفة اللغة التحليليين أن غدت موردا يصدرون عنه مولين ظهورهم للفلسفة الميتافيزيقية والفلسفة الطبيعية جميعا، بل حتى صارت اللغة توصف عندهم بأنها "بؤرة فلسفية"[4]. غير أن مسار هذا التصور الفلسفي الذي نتحدث عنه قضت ألا يؤطر داخل نسق منهجي واحد، وإنما تعددت ضمنه المشارب والرؤى، فتتج من تفاعلات مجموعه تيارات فلسفية تقوم على أرضية مشتركة تسلم "بأن الأنظمة التصورية الموضوعة في إطار الدراسة العلمية، كالدين والأخلاق والفن، تقوم كلها على أساس اللغة، فبها يتم التعبير عن المعرفة البشرية"[5]، وهكذا بات البحث في اللغة وتوضيحها من أولى مهام الفلسفة، ولذلك لم يتفق المعاصرون على شيء اتفاقهم على أن الفلسفة التحليلية لا تقوم لها قائمة إلا بالبحث في اللغة[6] بشكل صريح أو ضمني.

باختصار، تجمل مفهوم "الفلسفة التحليلية" في ثلاثة محاور:

- ضرورة التخلي عن أسلوب البحث الفلسفي القديم، وخصوصا جانبه الميتافيزيقي

[1] - روجيه غارودي، البنيوية: فلسفة موت الإنسان، ترجمة: جورج طرابيشي، دار الطليعة، بيروت، ص 115.

[2] - نفس المرجع، ص 115.

[3] - يُنظر: الطيب دبة، مبادئ اللسانيات البنوية، 2001، ص 215.

[4]- روديجر بوينسر – الفلسفة الألمانية الحديثة - ص106.

[5]- بول ريكور - نفس المرجع - ص9.

[6]- François Récanati- Naissance de la pragmatique-in: Quand dire c'est faire- (postface)-p 185

- تغيير بؤرة الاهتمام الفلسفي من "نظرية المعرفة" إلى "التحليل اللغوي" الذي هو مرحلة أوّلية ابتدائية ثم تتبعها الموضوعات الأخرى.
- تحديد بعض المباحث اللغوية وتعميقها، ولا سيما مبحث "الدلالة" والظواهر اللغوية المتفرعة عنه. والدلالة التي بحثتها الفلسفة التحليلية ذات تداخل بين الفلاسفة والمناطقة والبلاغيين وحتى علماء الرياضيات[1].

1 - 4 - فروع الفلسفة التحليلية:

عرفنا أن الفيلسوف الذي يعود إليه الفضل في تأسيس الفلسفة التحليلية وإيلاء الأهمية القصوى لدراسة اللغة هو النمساوي غوتلوب فريجه، بما بثه من وعي معرفي فلسفي جديد- بضرورة البحث في اللغة وبحاجة الفلسفة إلى البحث اللغوي - في خلد الفلاسفة الذين تتلمذوا عليه أو تأثروا بفكره التجديدي من أمثال : برتراند راسل **Russell .B**[2] "، وفيتغنشتاين **Wittgenstein**، وأوستين، وسيرل، وغيرهم ... على الرغم من قلة إنتاجه المكتوب. فانصبت جهود هؤلاء الفلاسفة التحليليين على إعادة فهم اللغة الطبيعية وتوضيحها، ثم إعادة تعريف الواقع وفهم العالم تبعا لتعريف اللغة وفهمها. ومن الطبيعي ألا تتفق تلك الاتجاهات على الجزئيات وإن اتفقت على الجوهر، أي على الأصول الفكرية المتمثلة في المبادئ التأسيسية المشار إليها باقتضاب في الصفحات السابقة والتي أجملت في الفقرة الأخيرة.

[1] - **لخص ريكاناتي- وقد كان رئيس الجمعية الأوروبية للفلسفة التحليلية- مفهومه للفلسفة التحليلية في أنها "هي الأسلوب العلمي، أو هي الروح العلمية"، يُنظر:** François Recanati, https://www.youtube.com/watch?v=I7sZJdhWxTM

[2] - ذهبت يمنى طريف الخولي إلى أن برتراند رسل يعد من أبرز الفلاسفة المتأثرين بآراء فريجة اللغوية، يُنظر: جدل المثالية والواقعية عند برتراند رسل (مقالة)، في: عالم الفكر (مجلة)- تصدر عن: المجلس الأعلى للثقافة والفنون والآداب، الكويت، العدد 30، سبتمبر 2001، ص 17.

وفيما يلي عرض تحليلي مقتضَب لأبرز فروع الفلسفة التحليلية لبيان موقفها من التداولية وموقع هذه الأخيرة منها؛ فهذا أهم ما يعنينا من مباحث هذا الفصل. وتلك الفروع أو الاتجاهات الأبرز ثلاثة هي: الوضعانية المنطقية، والظاهراتية اللغوية، وفلسفة اللغة العادية. وهذا الفرع الأخير هو الذي نشأت بين أحضانه ظاهرة "الأفعال الكلامية[1].

1- الظاهر اتية اللغوية Phénoménologie du langage:

يتجه المنظور الظاهراتي في اللغة إلى مستوى عام يشمل الحدث اللغوي وغيره، أي يتجاوز اللغة المتجسدة كلاما أو نصا إلى البحث في الشروط الذهنية ما قبل الوجودية للأداء اللغوي. ففي محاولة تفاديه لمنهج الفلسفة الميتافيزيقية ولقضاياها اقترح الفيلسوف إدموند هوسرل **E.Husserl (1859-1938)** أن تتجاوز الفلسفة ثنائية اللغة والواقع، التي هي من مخلفات الفلسفة القديمة، كمشكلة تفاعل الذات والموضوع، والتي هي من بقايا مشكلات نظرية المعرفة والتي لم تحل ولن تحل، بل قد تبدو - في ضوء معقولية الإجراء الظاهراتي - من الأوهام والمشكلات الزائفة، لأنها لا تستطيع أن تتجاوز ثنائية الذات والموضوع.

تستند الفلسفة الظاهراتية إلى مبدأ **"القصدية" (Intentionnalite)**، والذي لا يعني شيئا آخر غير هذه الخاصية العميقة والعامة التي هي "الشعور" بشيء ما بأنه هو في ذاته "الموضوع المفكر به". وترتكز الفلسفة الظاهراتية على خلفية **"التوجه إلى الأشياء نفسها، والنظر إليها من خارج ذاها"**[2]، مما يفيد إلغاء الوسائط المفتعلة التي تعيق فاعلية الوعي وتجزيء الظاهرة الواحدة إلى ذرات متناثرة يصعب الجمع بينها في نسق منهجي واحد، فذلك مبطل لركيزها الأساسية، وهي إبقاء المضمون الجوهري للأشياء بغرض "إحكام القبضة على الواقع في تركيبه الماهوي"[3].

[1]- François Recanati – Naissance de la pragmatique-in: Quand dire c'est faire- (postface) – pp -185/203

[2]- مارتن هايدجر - في : روديجر بوبنر - نفس المرجع - ص 144.

[3]- kevin Klément - www.unige.ch-lettres-philo.

و"الظاهراتية" فلسفة تبحث عن كيفية إقامة تصور شبه كلي أو شبه شامل، ما قبلي سابق للنطق باللغة، تنضوي تحته التصورات الجزئية، فهي طريقة في النظر الفلسفي تهدف إلى فهم المضامين العقلية التي تنطوي عليها الظواهر الكلية[1]، وهي لا تنظر إلى العالم كـ"وجود" عام فقط، بل كـ"ظاهرة" مستقلة مبتدأة جديرة بالدراسة والبحث، ومن ثم فهي فلسفة ابتعدت بعض الشيء عن واقع اللغة، فهي أقرب إلى أن تكون رؤية فلسفية متعالية أكثر منها مشروعا لغويا قائما على معطيات الواقع.

خصص هوسرل، وهو من أبرز الفلاسفة الذين يتزعمون الاتجاه الظاهراتي الحديث في فلسفة اللغة بل هو مؤسسه، بحوثه لدراسة دلالات الظواهر السابقة للغة كالإدراك، ووجود المعنى عنده سابق لوجود اللغة، وفعل التشكل اللغوي -والذي قد يُفهم على أنه يعني انبثاق اللغة من صميم الوجدان- يمر عبر قطبين[2]:

- قطب "الأساس"، وهو سابق على التفكير.
- قطب "المنطقية"، وهو يعقلن المدركات.

ما يفهم من هذه الرؤية أنها اهتمت بالبحث في أطر فكرية أعم من الكينونة اللغوية المعهودة إذ راحت تتساءل عن قطب "الأساس" وهو سابق لبداية الحدث اللساني في أعماق الوجدان، ولعله هو الذي يسميه سوسير "المرحلة السديمية"[3]، والتي هي مرحلة ذهنية ما قبل وجودية، فهي في غاية التجريد، ولا علاقة لها بالاستعمال اللغوي ولا بظروف استخدام اللغة، ولا بأحوال أطراف الحوار، ولا ملابسات التواصل، ولا بمقاصد وأغراض المتكلمين. ومن هنا فإن المنظور الظاهراتي، كسابقه، لا يواجه المشكلة التي نحن بصددها ولا يتبنى البعد الاستعمالي العادي للغات الطبيعية كمبدا أساسي؛ فقد أقصى نفسه، بسبب فلسفته

[1]- إدموند هوسرل، تأملات ديكارتية، ترجمة: تيسير شيخ الأرض، دار بيروت للطباعة والنشر، 1958، ص 11.

[2] - يُنظر أيضا في هذه المفاهيم: مخلوف سيد أحمد، التصور الفينيمينولوجي للغة، أطروحة دكتوراه في الفلسفة (جامعة وهران، 2012-2013)، ص 237 وما بعدها، هذا إذا صحت ترجمة تلك المصطلحات...

[3]- F. De Saussure-Cours- p :179.

الظاهراتية المغرقة في الأوَّليات اللغوية في الذهن، أو بسبب بحثه في الشروط ما قبل الوجودية للأداء اللغوي، عن الخوض في المقاربة التداولية للغة، ولا تقوم تلك المقاربة في جوهرها إلا على أساس الاستعمال، ومن ثم فهو اتجاه لا يقع في صميم الهم التداولي. ولكن هذا الموقف ينبغي ألا ينسينا أن الفلسفة الظاهراتية قد جاءت بمبدأ إجرائي نافع (أو تبنته بعد أن قال به آخرون سابقون لها!) في فلسفة اللغة عموما وفي التداولية خصوصا، وهو مبدأ **"القصدية" (Intentionnalité)** الذي استثمره الفيلسوف أوستين في دراسة ظاهرة "الأفعال الكلامية وتحليل مكوناتها ثم استثمره سيرل من بعده.

2- الوضعانية المنطقية Positivisme logique:

يعود التيار الوضعاني المنطقي، وهو فرع من فلسفة اللغة المسماة: الفلسفة التحليلية، إلى عدة فلاسفة من أبرزهم الفيلسوف رودولف كارناب **Rudolph Carnap** الذي تأثر بالفيلسوف فريجه - مؤسس المنطق الحديث والفلسفة التحليلية - والذي تتلمذ عليه بطريقة غير مباشرة متأثرا بأفكاره المبثوثة في كتابه "أسس علم الحساب" الذي ألمحنا إليه سابقا، فانفعل بمجمل آرائه التجديدية في الفلسفة والمنطق. ولقد اكتسب مكانته بين فلاسفة عصره بعدما نشر بحثه الشهير الموسوم بـ"استبعاد الميتافيزيقتا عبر التحليل المنطقي للغة"، وكان ذلك سنة **1959**، وكان يهدف من وراء نشره إلى دفع الفلاسفة لتبني البحث في اللغة واتخاذها مادة فلسفية. والفرضية الفلسفية التي يقوم عليها هي أن "أية صياغة لتصور فلسفي دقيق تنتهي حتما إلى تحليل اللغة تحليلا منطقيا"[1]، وبذلك ساد الاعتقاد بأن المسائل الفلسفية ينبغي أن تكون لسانية خالصة، مما يفيد - في نهاية الأمر - أن تتخلى الفلسفة عن البحث الميتافيزيقي الذي شغلها لقرون عديدة، وأن تشتغل بدراسة اللغة فهما وتوضيحا.

[1]- بول ريكور - فلسفة اللغة - ص6.

يقوم مشروع كارناب على استبدال اللغة المنطقية الصارمة بهذه اللغة العادية التي تسيء إلى الواقع بما تنطوي عليه من اعتباطية وتناقض وغموض، فسعى من ثم، بوصفه عالم منطق وفيلسوف علم، إلى تكوين لغة صناعية تتوفر لها متطلبات الصرامة والدقة اللتين افتقدهما في اللغات الطبيعية.

غير أنه سرعان ما تبين له غلو هذا الزعم، فخفت حماسه له ولكن لم يتخل عنه نهائيا، فأخذ يعيد النظر شيئا فشيئا في دعواه، فتخلى عن فلسفته "النحوية المنطقية" لمصلحة البحث عن بديل عقلي يتوخى المعنى[1]، واتجه إلى تأسيس فلسفة دلالية ذات طبيعة براغماتية على أن الدلالة - برأيه - تضيف إلى النحو قوة توجيه من شأنها أن تكسب عبارات اللغة قدرا من المعقولية والبراغماتية، وذلك سر تنويه "كارناب" بالتداولية باعتبارها "قاعدة كل اللسانيات"[2] ما دامت تستمد من السيميائيات والمنطق والفلسفة، فتأسس عندئذ علوم للسان، كالنحو والدلالة، على ثراء معرفي بما تضافر لها من إمدادات معرفية مختلفة.

تراوح موقف كارناب ومدرسته، إذن، بين الإيمان بالتداولية تارة، وبين السعي نحو تأسيس لغة صورية مصطنعة تارة أخرى، وإن كان موقفه النهائي أميل إلى الثاني، فاستقر رأيه عليه، وخطا بذلك خطوة نحو إقصاء اللغات الطبيعية من اهتمامه، فوقع خارج البحث التداولي المعهود.

3- فلسفة اللغة العادية[3] Philosophie du langage ordinaire:

ذكرنا أن مؤسس هذا التيار هو فيتغنشتاين **L . Wittgenstein**، وهو يشارك الوضعانية المنطقية قناعتها بأن الميتافيزيقا عارية عن الجدوى، وأن البحث الفلسفي لا يكون مجديا إلا إذا اتخذ اللغة موضوعا للدراسة الفلسفية، غير أنه يختلف عنها في مسألة جوهرية وهي اهتمامه باللغة العادية المستعملة من قبل الشخص العادي في السياقات والمواقف اليومية المختلفة. كانت جهود فيتغنشتاين تصب دوما صوب توضيح

[1]- S. Chauvier - Origines de la philosophie analytique-p 11.

[2]- فرانسواز آرمنفو - المقاربة التداولية - ترجمة:د. سعيد علوش - مركز الإنماء القومي -بيروت - ص34.

[3] - لا نريد أن نتموقع في موقع الدفاع عن هذا التوجه، ولكن نريد أن نعرض موقفهم كما هو لنبيّن أنه هو الخلفية المعرفية لنشأة نظرية الأفعال الكلامية.

منطق اللغة الحية المستعملة، غير أن اللغة التي كان يريدها ينبغي أن تكون بسيطة منزوعة الأقنعة الفلسفية والعلمية. كان يريد لغة بسيطة بساطة لغة الحياة - اليومية وهي تحقق التواصل بين مستعمليها.

والمعيار الذي يتخذه فيتغنشتاين دليلا على بساطة اللغة، وعلى معقولية الاستعمالات اللغوية، هو "أن نراعي نوعا معينا من استخدام اللغة عندما يرتبط بعضنا بالبعض الآخر على نحو معين بوصفنا كائنات بشرية"[1]. وبشريتنا لا تتحقق عنده إلا إذا راعي المتحدث في حديثه الصلة القائمة مع الطرف الآخر في الحديث الذي نفترضه مقدما في كل "صفقة-كلام". والبعد التداولي اللغة يمتد إلى ما وراء المتطلبات اللغوية حتى يصل إلى التعاطي مع الشريك بوصفه شريكا، والتعرف على الآخر بوصفه "أنا غيرية، عاقلة، ومساوية"[2]. وقد أوضح، في معرض حديثه عن مقومات الحجاج (**Argumentation**)، أن الشخص الذي ينخرط في حوار يبدأ على أساس المعايير العقلانية التي يخضع لها نفسه، على عكس من يتورط في تملق أو تمديد أو كذب... وبناء عليه تكون معايير نجاح أي حوار هي:

1. الوضوح
2. المعقولية
3. الاستعداد للإنصات .
4. قبول البدائل .[3]

وتحت عنوان "ألعاب اللغة" كتب: "ما الذي يعطي الحياة للعلامات اللغوية ؟ إنها تعيش من خلال الاستعمال. إن الاستعمال هو ذاتها. لا تبحث عن معنى كلمة ما، ولكن ابحث عن استعمالاتها. إن الاستعمال هو الذي يعطيها دلالتها"[4].

[1] - L. Wittgenstein- Investigations philosophiques-p76.
[2] - Ibid.-p71.
[3] - Ibid. p71.
[4] - Ibid p76

فالمادة الأساسية للفلسفة عند فيتغنشتاين هي اللغة، فكان يرى في مؤلفه الثاني "أبحاث فلسفية" أن جميع مشكلات الفلسفة تحل باللغة، فاللغة هي المفتاح السحري الذي يفتح مغاليق الفلسفة، بل كان يعتقد أن الخلافات والتناقضات المنتشرة بين الفلاسفة سببها الأساسي هو سوء فهمهم للغة أو إهمالهم لها، وراح يطور فلسفته الجديدة - المتأثرة بفلسفة أستاذه فريحه - التي توصي بمراعاة الجانب الاستعمالي في اللغة، فالاستعمال هو الذي يكسب تعليم اللغة واستخدامها، "نقول إن الطفل قد تعلم كلمة من الكلمات إذا أحسن لعبة استخدامها"[1].

ولكن تراث فيتغنشتاين لم يكتسب مكانته الحقيقية إلا بعد ما تبناه فلاسفة مدرسة "أوكسفورد" ولاسيما ج. ل. أوستين، ثم سيرل من بعده، وقد بدا أثر فيتغنشتاين عليه واضحا في كتابه "كيف تُصنع الأشياء بالكلمات" (الذي ترجمه إلى الفرنسية القس الكندي جيل لان **Gilles Lane**)[2]، وتلميذه ج. سيرل في استلهامه لبعض أفكار هذا الفيلسوف واتخاذها معايير وأسسا في دراسة الأفعال الإنجازية وتحليل مكوناتها وتصنيفها.[3].

وعند التعمق في أطروحة فيتغنشتاين ندرك أن قيمته تتمثل في كونه قدم عملا معمقا في إنجاز فلسفة دلالية تداولية تهتم بالمضامين والمقاصد التواصلية وتختلف عما عرفناه عند علماء الدلالة اللغويين (خصوصا البنيويين المكتفين بالروابط والعلاقات الداخلية الخالصة)، وتختلف أيضا عما وضعته الوضعانية المنطقية من مصادرات لجمل اللغة وعباراتها وشطبها بحجة أنها زعم كاذب وتناقض وغموض. وبينما كانت "الوضعانية المنطقية" تفعل ذلك، كان "أوستين" يلح على القيمتين "الدلالية والتداولية" لعبارات لغوية كثيرة تستخدم في اللغة الإنجليزية، وفي كل اللغات.

---

[1] -Ibid. p76

[2] - بما مفاده: "عندما يكون القول هو الفعل"- **Quand dire c'est faire- tr par Gilles Lane- postface de: François Recanati – Editions du Seuil - 1970.**

[3] - لاق هذا التيار الفلسفي معارضة من قبل بعضهم، منهم فيلسوف العلم: كارل بوبر يُنظر كتابه: منطق الكشف العلمي، ترجمة: ماهر عبد القادر محمد علي، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، الجزء الأول (د ت).

ومن الجديد الذي يوافق به أسلافه من فلاسفة التحليل، إدخاله عنصر **"القصدية Intentionnalité"** في فهم كلام المتكلم وفي تحليل العبارات اللغوية، وهو مبدأ أخذه من الفيلسوف "هوسرل" والظاهراتيين أو ممن سبقهم، واستثمره في تحليل الجمل الإنجليزية. وتتجلى "القصدية"، بالخصوص، في الربط بين التراكيب اللغوية ومراعاة غرض المتكلم والمقصد العام من الخطاب، في شبكة مفاهيمية مستوفية للبعد التداولي للغة، إذ هي المسلمة الأساسية التي تحدد شروط الحق في الكلام والانخراط في أي مشروع تواصلي لغوي.

والحق في الكلام، من وجهة نظر التداوليين، هو "مفهوم تعاوني" يتكون من مبدأين على الأقل:

- **مبدأ الفعل والتفاعل Principe de l'acte et d' interaction** ، ويتمظهر عبر آليتي التأثر والتأثير ... فكل فعل كلامي مندرجٌ بطبيعته يندرج في إطار علاقة التأثير والتأثر بين المتخاطبين.
- **مبدأ االملاءمة** (أو التوافق الخِطابي مع موضوع الحديث) **Principe de pertinence**.

والمبدأ الأول يفضي إلى "الحجاج" (**L' Argumentation**) الذي لا يعدو أن يكون "ملفوظا" موجَّها إلى "ملفوظ له" بقصد استمالته أو تغيير رأيه أو موقفه لسحبه إلى ضفة مخاطَبه وشريكه في الخطاب، أو "خصمه"، والمبدأ الثاني تحقيقٌ لمبدأ "التعاون" وتجسيدٌ له، كما ذهب إليه الفيلسوف غرايس **H.P. Grice**، وقد تحدث الفيلسوف النمساوي ل. فيتغنشتاين **L. Wittgenstein** عن "صفقة-الكلام" منذ عدة عقود.

وتقوم **"مسلمة القصدية"** على أسس تواصلية درسها فلاسفة التحليل ثم توسع في تفريعها بعض التداوليين حتى غدت نسقا مفاهيميا مترابطا[1]. فقد غدت قيمة تداولية نصية حوارية، وتعد مراعاة مفهومها العام ضمن شبكتها المفاهيمية من أبرز المفاتيح المنهجية في الدراسات اللسانية النصية.

[1]- منها على الخصوص:
- مبدأ التعاقد Principe de contrat
مبدأ الفضاء المزدوج لتمظهرات فعل اللغة
Double espace de la mise en scène de' acte de langage

ويتلخص موقع الاتجاهات الثلاثة من التداولية وموقفها منها في المخطط الآتي:

-مبدأ الإستراتيجية Principe de la stratégie

-الصريح والضمني Explicite et implicite

-نمط تنظيم الخطاب Mode d'organisation du discours

-نمط النصوص .Type de texte

يُنظر : باتريك شارودو -**Patrick Charaudeau** - لسانيات الخطاب ترجمة: محمد يحياتن- في: اللغة العربية (مجلة)، يصدرها المجلس الأعلى للغة العربية - دار هومة . الجزائر / العدد 2 و19 من س 229 إلى 2015.

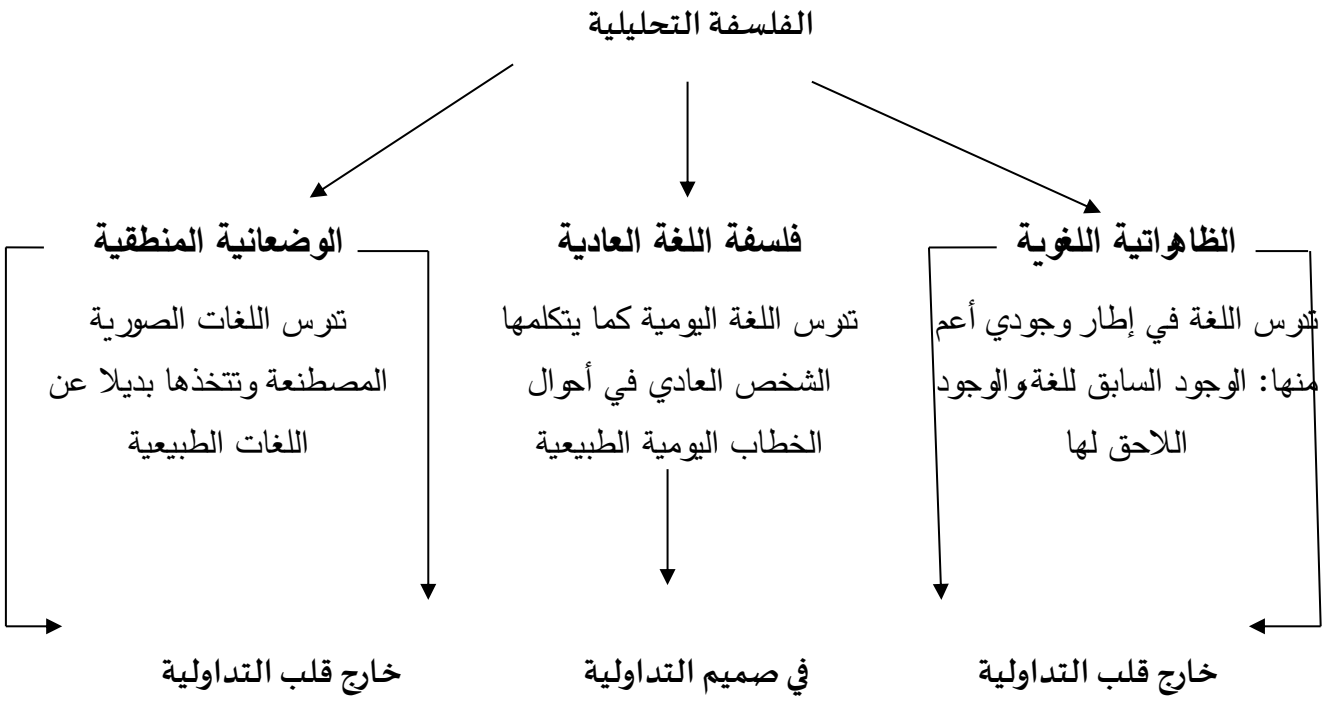

نرى إذن أن الفلسفة التحليلية، فيما آلت إليه على يد كارناب ومدرسته وعلى أيدي الظاهراتيين، لا تقع كلها في قلب"التداولية" ولا يمكن استثمار جميع فروعها وتياراتهما في الدرس التداولي، غير أنه يمكن أن يُفادَ منها في توسيع الآفاق العلمية للبحث.

من فلسفة اللغة إلى فلسفة العقل: يصرح ريكاناتي[1] أن الفلسفة التحليلية آخذة في التحول-منذ زمن- من فلسفة للغة إلى فلسفة للعقل، فهناك جسور وممرات تربط بين النظريات اللغوية ونظريات العقل (الذهن)، فالفلاسفة الذين كانوا "فلاسفة تحليل" صاروا "فلاسفة عقل"، بسبب هذا التماثل الحاصل (الموجود) بين البنى الذهنية والبنى اللغوية؛ فاللغات قابلة للتحليل إلى عناصر (كالكلمات مثلا...) والذهن قابل للتحليل إلى وحدات (المفاهيم)، والأعمال الفلسفية في فلسفة العقل قامت على المماثلة بين الفهرسة اللغوية والفهرسة

[1] - يُنظر: François Recanati, https://www.youtube.com/watch?v=I7sZJdhWxTM

الذهنية، وفلاسفة العقل وفلاسفة اللغة معنيون بالتمثيلات، سواء أكانت ذهنية أو لغوية. وكان سيرل قد دافع عن هذا التماثل بين الجانبين، راصدا لحدوث الانتقال من فلسفة اللغة إلى فلسفة العقل، أو بالأحرى الانتقال من التمثل اللغوي المبني على قصدية مشتقة إلى التمثل العقلي المبني على قصدية عقلية، لأن فلسفة العقل أصبحت أهم موضوع في الفلسفة المعاصرة لمجموعة من الأسباب التاريخية، فقد تصدرت فلسفة اللغة مجالا أكبر من القرن العشرين، وحصلت على مرتبة الفلسفة الأولى، إذ اعتبر العديد من الفلاسفة أن هناك مجالات فلسفية أخرى مشتقة من فلسفة اللغة، لكن مع مرور الوقت أصبح يركز على العقل (الذهن)، لأن مجمل المشاكل التي أثارتها فلسفة اللغة ترجع بالأساس إلى العقل، فقام سيرل برصد التماثل القائم بين البنى العقلية والبنى اللغوية، أو بين بنية "الأفعال الكلامية" وبنية "حالات القصدية "(**états intentionnels**)، بل ذهب إلى حد التصريح بـ"**أن هذا التماثل ضروري: فالملفوظ الوصفي تعبير عن اعتقاد، والأمر تعبير عن رغبة، والوعد تعبير عن نية ...**"[1]

ولكن بعض الفلاسفة واللسانيين – في مرحلة سابقة لأيامنا- شككوا في هذه الفلسفة التي اتخذت العودة إلى اللغة العادية منهجا وموضوعا، زاعمين أنه لن يكون بإمكانها تقديم المزيد، واتهموها بالابتذال الفكري، ونعتوها بالفتور والجمود، بل ذهب بعضهم إلى حد التشكيك في الأرضية التي تقوم عليها[2]. وسواء أكان الفتور الذي أصابها حينذاك نتيجة للانتقادات التي وجهت إليها، أم سببه تراجع حركتها النقدية المناوئة للميتافيزيقا، فلم يعد خصومها ينظرون إليها على أنها فلسفة بناءة تقدم فكرا جديدا، ولكن بمجرد رد فعل

[1] - يُنظر: J.Searle/rtf/iedebat.-/J . Searle- le debat- Entretien –St – Socrates. Berkeley.edu

[2] -ibid- p ، وقد أوضح سيرل في حوار أجرته معه بمحلة (Le débat)، أن تيار الفلسفة التحليلية قد نما في سياق تطوري طبيعي، فانتقل من مستوى "فلسفة اللغة" إلى أفق "فلسفة العقل". ونحن يعنينا - مما جاء به فلاسفة التحليل - الانعكاسات المنهجية والمعرفية على البحث اللغوي، كما قلنا سابقا، يُنظر: John Searle- Entretien- st-socrates.berkeley.edu/~j Searle/rtf/le débat.

واجهت به غلو الميتافيزيقا وعدم واقعيتها. وكان من أبرز المناوئين لتيار "فلسفة اللغة العادية" الفيلسوف شتراوسن[1] الذي دافع عن حرية وإرادة الأشخاص بفلسفة وجودية ترفض استلاب الإرادة الإنسانية.

الخاتمة

وخلاصة القول - ونحن بصدد تقديم صورة عن المناخ الفلسفي الذي انبثقت من رحمه الظواهر التداولية- أن هذه الأخيرة قد نشأت في مناخ فكري عام، ميزته أنه ولى ظهره للميتافيزيقا، وانفتح على اللغة دراسة وفهما وتوضيحا، فأسهم إسهاما معمقا في دراسة ظواهر دلالية وتداولية كانت مهملة أو مهمشة. وقد رأينا كيف تم تجاوز البنيوية والمواريث السوسيرية في مرحلة لسانية جديدة هيأت الأجواء لبروز التداولية وما انبثق عنها أو تأثر بها من اتجاهات لسانية وظيفية. هذه المرحلة المعاصرة من عمر البحث اللساني صنعت أسُسَها أبحاثُ فلاسفة التحليل ومن سبقهم،ثم عمّقَ نظريتَها ومفاهيمها التأسيسية بصفة خاصة الفيلسوفان ج. ل. أوستين، وتلميذه ج. سيرل.

قائمة المراجع:

أهم المراجع العربية والمترجمة:

1. آرمنفو (فرانسواز)، المقاربة التداولية - ترجمة:د. سعيد علوش - مركز الإنماء القومي -بيروت - ص34.
2. بابتي (عزيزة فوال)، موسوعة الأعلام العرب والمسلمين والعالميين)، دار الكتب العلميّة، ج4، د ت.
3. بوبر (كارل)، منطق الكشف العلمي، ترجمة: ماهر عبد القادر محمد علي، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، الجزء الأول (د ت).
4. بوبنر (روديجر)، الفلسفة الألمانية الحديثة - ترجمة: فؤاد كامل – دار الثقافة للنشر والتوزيع-القاهرة.
5. بارتشت (بريجيت)، مناهج علم اللغة...، ترجمة: سعيد حسن بحيري، مؤسسة المختار، 2004.
6. بوقرة نعمان، المدارس اللسانيّة المعاصرة،

[1] - Nouveaux éléments de pragmatique intégrée- in : Philosophie et langage- Hermann Parret -Université libre de Bruxelles- 1982- p 62.

7. دبة (الطيب)، الطيب دبة، مبادئ اللسانيات البنوية، دار القصبة للنشر، الجزائر، 2001.

8. ريكور (بول)- فلسفة اللغة (مقالة)- في: العرب والفكر العالمي (مجلة) - مركز للإنماء القومي- بيروت- خريف 1989.

9. زكريا (ميشال)، الألسنية – علم اللغة الحديث – المبادئ و الأعلام".

10.زيدان (محمود)، فلسفة اللغة، دار النهضة العربية، بيروت 1985.

11.مومن (أحمد)، اللسانيات النشأة والتطور، ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون، 2002.

12.نرليتش (بريجيت) ودافيد (كلارك)، في: تساؤلات التداولية وتحليل الخطاب، ترجمة: حافظ إسماعيلي علوي وآخرين، دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع، عمان، 2016.

13.إدموند هوسرل، تأملات ديكارتية، ترجمة: تيسير شيخ الأرض، دار بيروت للطباعة والنشر، 1958.

14.يمنى طريف الخولي، جدل المثالية والواقعية عند برتراند رسل (مقالة)، في: عالم الفكر (مجلة)- تصدر عن: المجلس الأعلى للثقافة والفنون والآداب، الكويت، العدد 30، سبتمبر 2001.

أهم المراجع الأجنبية:

15. J.L.Austin,**Quand dire c'est faire- tr par Gilles Lane- postface de: François Recanati – Editions du Seuil - 1970.**

16. S. Chauvier-Origines de la philosophie analytique- Gallimard - Paris – 1991.

17. **François Recanati, https://www.youtube.com/watch?v=I7sZJdhWxTM**

18. G. Frege- Les Fondements de l'arithmétique -trad. franç. De : C. Imbert-Paris-Le Seuil- p 181.

19. J. Searle- Entretien- st-socrates.berkeley.edu/~j Searle/rtf/le débat.

20. J. Searle-Entretien- st-socrates.berkeley.edu/~jsearle/rtf/ledebat. –

21. L. Hjelmslev - Essais linguistiques - Editions de Minuit- Paris- 1971.

22. Jean LADRIERE - Philosophie et langage - dans : Philosophie et Langage- Université libre de -Bruxelles- 1982.

23. Nerlich Brigitte, Clarke David D. La pragmatique avant Austin: fait ou fantasme ?. In: Histoire Épistémologie Langage, tome20, fascicule 2, 1998. Théories des cas.